فإرادة الخير هى فعلنا المباشر»[1]. فرسل يبدأ من هذه الأفكار القديمة فى كون الإنسان يسعى فى حياته إلى الأمور الخيرة التى تسبب له الراحة والطمأنينة، مثل الصحة والحب والعمل الشيق، وبالتالى يبعد الإنسان عن الأمور التى تكدر صفو حياته مثل الحسد والحقد والألم وغيره.

وعلى أساس هذه التوطئة التى تدور حول الصياغة الواقعية، والأخلاق التطبيقية لتصور أخلاقيات الجنس وسبل السعادة، تكونت عدة إشكاليات حول الصياغة الواقعية لفلسفة الأخلاق - كما تصورها رسل- فى كتابه الزواج والأخلاق، فكانت الرؤية المقدمة هنا ما هى إلا صياغة لوجهة نظر برتراند رسل فقط، وهى بالفعل رؤية تخالف جميع الأديان السماوية، وأهم هذه الإشكاليات:

1. إلى أى حد فهم رسل الزواج فى كتابه «الزواج والأخلاق»؟ وهل يمكن القول بأن ما قاله رسل يعد نظريةً عامةً فى الأخلاق؟ أم ما قاله لا يمثل سوى رؤيته الخاصة تجاه مشكلاته الحياتية؟
2. إلى أى حد بلوّر رسل رؤيته تجاه الدين؟ ولماذا رآه من معوقات السعادة فى الزواج الناجح؟
3. ما الحب؟ وما هو الحب العذرى؟ و إلى أى حد كانت هناك علاقة بين الحب والجنس بشكل عام؟ وهل يمكن قبول نظرية رسل فى الحب وتطبيقها على أرض الواقع؟ أم ما قاله بصدد الحب والجنس عبارة عن خيال لن يصل إلى أرض الحقيقة؟

ثانيا: الزواج(*) والمشكلة الأخلاقية.

ما هى نظرية رسل فى الزواج؟؟ وما علاقة نظريته فى الزواج بكل من الأخلاق بصفة خاصة، ومشكلة الحياة بصفة عامة؟؟ و إذا كانت هناك مبرراتٌ لقبول آرائه عن الزواج

(1) أسماء عبد الله محمد حمدون: الخير والشر فى فلسفة أفلوطين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2011م، ص119.

(*) الزواج Marriage: هو الاقتران الشرعى بين الرجل والمرأة لتكوين أسرة جديدة، وتختلف شروط عقده، وفسخه، والحقوق والواجبات المترتبة عليه باختلاف الجماعات. فإما أن يكون للرجل الواحد إمرأة واحدة كما فى نظام الزواج الموحد (monogamie)، أو عدة نساء كما فى نظام تعدد الزوجات (pologamie)، =

والجنس، فإلى أى حد يمكن القول بأن آرائه تتماشى مع الأديان أو الأخلاق بوصفها المرشد للسلوك الإنسانى؟

تلك هى الإشكالية الرئيسية فى الموضوع برمته، والتى يحاول الباحث أن يكشف النقاب عنها، و إن كانت الإجابات التى سيقدمها البحث قد تخلو من العمق واليقين فى هذا الموضوع، وذلك لأن معالجة موضوعات الزواج والأخلاق تحتاج إلى العديد من الدراسات والتحليلات الفلسفية والنفسية.

فى البدء يحاول رسل أن يقدم تعريفًا واضحًا بعض الشىء عما تعنيه كلمة «الزواج» Marriage، فيرى: «أن الزواج عبارة عن علاقة قائمة بين الرجال والنساء، وهو يختلف بالطبع عن باقى العلاقات الجنسية الأخرى من خلال حقيقته، حيث أنه يؤسس على شرعية قانونية A Legal Institution، كما يكتسب فى بعض المجتمعات الشرعية الدينية A Religious Institution، وبالتالى يعد الزواج فى الحالتين صورةً لكل من الشرعية والقانونية التى تعد ضرورية فى بناء الأسرة»[1]. مع التأكيد أن رسل هنا أخرج «الأطفال» من تعريفه لمعنى الكلمة[2]، ليناقشها كمفهوم فلسفى أخلاقى.

يحاول رسل من خلال تعريفه للزواج التأكيد على شرعيته القانونية أولاً، ثم شرعيته الدينية (يراها رسل فى بعض المجتمعات)، ومن ثم يبحث عن السبل التى تؤدى بالزواج إلى السعادة فى الحياة الاجتماعية والأخلاقية، لذلك كانت هناك بعض المؤثرات التى تؤثر

= و إما أن يكون للمرأة الواحدة عدة رجال كما فى نظام تعدد الأزواج. وقد يتحتم على الرجل أن يختار زوجته من عشيرته وأهله كما فى نظام الزواج الداخلى، أو يتحتم عليه اختيارها من خارج عشيرته كما فى نظام الزواج الخارجى الشائع فى نظام «الطوطمية» وقد يبنى الزواج على العاطفة فيكون نتيجة حب متبادل بين الرجل والمرأة، أو يبنى على العقل فيكون نتيجة تفكير كل واحد من الزوجين فى مصلحته، ولكن الزواج الكامل يبنى على العاطفة والعقل معًا، لأنه إذا خلا من الحب أو من الشروط المادية والاجتماعية التى تصونه لم ينشىء أسرة سعيدة. فليس الزواج وسيلة لإشباع الغريزة الجنسية، و إنما هو عقد اجتماعى لتكوين أسرة يشعر فيها كل من الرجل والمرأة بالطمأنينة الروحية، من هنا كان واجبًا على الرجل أن يحب زوجته كما يحب نفسه، حتى يصبح الاثنان شخصًا واحدًا.

انظر- جميل صليبا: المعجم الفلسفى، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ص 641 - 642.

(1) B. Russell: Marriage and Morals, Unwin Books, London, 1970, p.68.

(2) Ibid: p.68.

فى العلاقـات الزوجية بين الرجال والنسـاء، والتى قد تجعـل الزواج يمضى قدمًا أو يهوى إلى الخلف.

يبدأ رسـل بتحليل تأثير العامل الاقتصادى عـلى الزواج، فيرى أن للعامل الإقتصادى The Economic Motive دورًا مهمًا فى التأثير على السلوك الجنسى Sexual Behaviour فى المجتمعات البدائيـة القديمـة، وبخاصـةٍ فى المجتمعات الرعويـة والزراعية، فقد كانت كـثرة الزوجات والأطفال تمثل قيمة اقتصادية كبرى للرجال، لأنهم كانوا يعملون فى الحقول والمزارع من أجل إرضاء أزواجهم. أما الأطفال فقد كانت لهم فائدة اقتصادية كبيرة، وبخاصة بعد سن الخامسة أو السادسة فى العمل بالحقول والمزارع، بل وفى رعى الحيوانات، لذلك كان أقوى الرجال نفوذًا هو من يمتلك أكبر عددٍ ممكن من الزوجات[1].

أما عن الوظيفة الأساسية للزوجة فى المجتمعات البدائية فوظيفتها تشبه وظيفة الحيوانات الأليفة، أما وظيفتها فى الحياة الجنسية فهى وظيفة ثانوية تقل من حيث الدور الاقتصادى، وعلى هذا المسـتوى من التحضر آنذاك كان يحق للرجل أن يطلـق زوجته divorce his wife، وذلك على الرغم من أنه يجب فى هذه الحالة أن تسـتعيد الزوجة لعائلتها أية نفقات واجبة (تسمى فى الوقت الحاضر نفقة الزوجة)، بينما ليس للزوجة الحق فى هذه الحالة أن تطلق زوجها[2].

ومع التطور الحضارى فى بعض المجتمعات بدأت تظهر قيود تجاه الزنا، بعد أن كان مباحًا فى فترات سـابقة، تشبه قيود الزواج، فبدأت تظهر العقوبات القاسية تجاه المرأة الزانية، وكان يحكـم عليهـا بالموت، بينما الرجل لا يعتـبر مجرمًا إذا مارس الجنس مع فتـاة غير متزوجة. لقد جعل العامل الاقتصادى حياة المرأة فى المجتمعات الزراعية شاقة، فكانت تشيخ وتهرم فى سن الخامسة والعشرين، وبالتالى تفقد سماتها الجمالية، فكان ينظر إليها بوصفها حيوان أليف[3].

إن الدور الاقتصادى الذى يشير إليه رسل هنا قد قلل من شأن المرأة فى المجتمعات البدائية، وهذا يذكرنا بحضارة اليونان القديمة التى جعلت المرأة أيضًا تقع تحت القهر الاجتماعى، ففى الفلسـفة اليونانية نجد نماذجًا من عمالقة الفكر اليونانى، سقراط وأفلاطون وأرسطو، يقولون

(1) Ibid: pp.68,69.

(2) Ibid: p.69.

(3) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص 253.

بأفكار سيئة عن المرأة مسايرة لشعور الكراهية للمرأة السائد فى مجتمعهم، فكانت المرأة عند سقراط التى هى الزوجة مصدر النكد، أو أنها شر لابد منه[1].

وقد رآها «إكسينوفون» المؤرخ اليونانى فى مؤلفه «الاقتصادى» «أن المرأة نشأت لكى تسمع وترى وتسأل بأقل قدر ممكن»[2]. والسبب فى ذلك كان القهر الاجتماعى الذى وقع على طبقات كبيرة من المجتمع عبر العصور قد وقع أكثره على النساء، فبلاد اليونان التى عرفت حضارة من أرقى حضارات التاريخ وأبدعت فى الفكر والفن والآداب روائعًا خالدًة، لم تلبث أن ذوت بفعل المشكلات الاجتماعية والسياسية التى تفاقمت عن المجتمع العبودى وتدهور فيها حال المرأة، ووصل إلى مستوى سيء للغاية. وظهرت عبقريات الفلاسفة الكبار أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو، فقد قامت هذه العبقريات على عبودية آلاف العبيد وعبودية النساء كافة[3].

من خلال ما سبق يمكن القول أن تأكيد رسل على المجتمعات البدائية القديمة، وأثر العوامل الاقتصادية من زراعة ورعى وغيره على طبيعة المرأة فى الحياة، وعلى طبيعتها بوصفها زوجة كان مُسْتمدًا من الفلسفة اليونانية التى حقرت من وضع المرأة بوجه عام، وبالتالى كان تشبيه رسل للمرأة بالحيوان الأليف فى المجتمع البدائى ما هو إلا قراءة ثانية للفلسفة اليونانية.

ويأتى بعد ذلك العامل الدينى الذى يتمثل فى الكنيسة، فيرى رسل: «أن الرجل الذى يمارس العلاقة الجنسية مع زوجة رجل آخر يعد مجرمًا، بينما لا يلام هذا الرجل إذا كانت لديه علاقة جنسية مع امرأة غير متزوجة، ولكن مع ظهور المسيحية تغيرت هذه النظرة، حيث أن الزواج فى الديانة المسيحية قد تم معالجته بدرجة كبيرة، فالشخص الذى ينتهك حقوق الزوجية يلام على أساس من هذه الشرائع، فقد اعتبرت الأخلاق المسيحية ممارسة الجنس مع زوجة رجل آخر إعتداءً على حرمة هذا الرجل، أما ممارسته خارج إطار الزواج أو مع فتاة غير متزوجة، فإنه يعد إعتداءًا على حرمة الله. ويعد هذا الأمر عند الكنيسة من الموضوعات الشديدة الخطورة، بل أمرًا لا يغتفر»[4].

(1) حسين على: ما هى الفلسفة؟، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص265.
(2) أميرة حلمى مطر: مقالات فلسفية حول القيم والحضارة، مكتبة مدبولى، القاهرة، د.ت، ص 26.
(3) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(4) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.69.

وقد حرمت المسيحية الطلاق الذى كان مباحًا للرجل قبل ظهورها، حيث اعتبرت الديانة المسيحية عقد الزواج مقدسًا ولا يمكن للزوجين الانفصال مدى الحياة، فالزواج لابد أن يكون ساريًا ومستمرًا طول العمر[1]. أضف إلى ذلك أن قوانين الزواج فى إنجلترا - كما يقول الفيلسوف محل الدراسة- فى كتابه «نحو عالم أفضل» مبنية على التوقع بأن العدد الأكبر من الزيجات سيدوم مدى الحياة، فلا يمكن فسخ الزواج إلا عندما يثبت أن واحدًا من الزوجين، وليس كلاهما معًا قد زنى، كما لا يمكن حل زواج بسبب الجنون أو الجريمة أو القسوة مهما كانت هذه الأشياء فظيعة، أو لسبب الهجر أو لزنى الطرفين. كما لا يمكن حله لأية علة كانت حتى ولو وافق كل من الرجل والمرأة على ذلك، حيث يعتبر القانون فى كل هذه الحالات الزوج والزوجة مرتبطين معًا مدى الحياة، فيقوم موظف خاص بمحاكم الطلاق يلقب فى إنجلترا بـ» مراقب الملك» أو نائب الملك king`s proctor بمعارضة الطلاق عندما يتواطأ الاثنان على المطالبة بالطلاق أو عندما يكون كل فرد منهما قد زنى[2]. أضف إلى ذلك أن الطلاق فى هذه الحالة لا يمكن عمليًا إلا للأغنياء، لأن نفقات الطلاق باهظة جدا[3].

كما جعلت المسيحية وضع المرأة أسوأ حالٍ عما كانت عليه فى الماضى، وبصفة خاصة عند المجتمعات الأكثر ثراءً the well-to-do classes وذلك على الرغم من أنها قد تساوت مع الرجال فى الحقوق الدينية theologial equality كما رفضت اعتبارها ملكًا للأزواج، حيث لا يحق للمرأة المتزوجة أن تترك زوجها لتذهب إلى رجل آخر، بل يحق لها أن تهجر الحياة الزوجية لتعيش فى الحياة الدينية[4].

إذا كانت الكنيسة قد حرمت الزنا كما يقول رسل فى تحليله لأثر العامل الدينى فى الزواج، فإن رسل هنا يرى أن للكنيسة دورًا مهما فى تعاسة الزواج، فقد فسرها من وجهة نظره الخاصة، وذلك عندما تساءل عن الأسباب التى تعمل على سعادة الزواج، وكذلك الأسباب التى تعمل على تعاسته[5].

---

(1) Ibid, pp.69,70.

(2) برتراند رسل: نحو عالم أفضل، مصدر سابق، ص133.

(3) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(4) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, pp.69,70.

(5) Ibid, p.70.

يتمثل السبب الأول عند رسل فى الكنيسة وتعاليمها- فيراها عائقًا فى سبيل الوصول إلى السعادة فى أمور الزواج، حيث يرى فيلسوفنا: «أن هناك مؤسسةً اجتماعيةً واحدةً تتأثر بالتقليد المسيحى إلى حد هائل، وأقصد بها مؤسسة الزواج، حيث تطغى تعاليم الكنيسة حتى الآن وبدرجة كبيرة على القانون وعلى الرأى العام، إلى حد بعيد، فيما يخص أمور الزواج، ومن خلاله تواصل الكنيسة تأثيرها على حياة الرجال والنساء والأطفال فى كل اهتماماتهم الحياتية، بل فى أخص شئونهم الشخصية»[1].

ويؤكد رسل على ذلك بقوله: «أنه فى المجتمعات المتحضرة، نرى أن الناس يشعرون بالتعاسة وعدم الارتياح، بالإضافة إلى كون أفراده غير قادرين على أن يصنعوا لأنفسهم هذه السعادة المطلوبة، والسبب فى ذلك هو ارتباطهم بشريك واحد طول العمر. فعلى الرغم من تعدد الأذواق والغايات نجد أن الزواج يكون ناجحًا بين الأفراد الأقل تنوعًا واختلافًا، فالأذواق المتنوعة والاهتمامات المتعددة تجعل أفراد المجتمع الواحد يشعرون بعدم الرضا عندما يجدون أنفسهم مع شريك واحد طول العمر، والسبب فى ذلك يكمن فى النظرة الكنسية التى تنظر للزواج من زاوية واحدة فقط، ألا وهى الجنس. ولا ترى الكنيسة أيَّة أسباب فى أن يقوم أحد الزوجين بفض زواجه عن الآخر، حيث تتمسك الكنيسة بالزواج وتجعل عقده غير قابلٍ للانفصال مدى الحياة، دون أن تنظر إلى مدى الصعوبة التى يعيشها أفراده[2].

ومن الأسباب التى تعمل على عدم السعادة فى الزواج- الحضارة Civilization، فإذا كان كل من الرجل وزوجته من أكثر الناس تحضرًا كانوا من أشقى الناس وأكثرهم تعاسة، ويمكن توضيح ذلك وتفسيره بالتربية الجنسية الخاطئة Bad Sexaul Education، التى تنتشر بين أفراد الطبقة المتحضرة أكثر من انتشارها بين طبقة الفلاحين، حيث يعتاد طفل الفلاح peasant children رؤية حقائق الحياة كاملة، ليس عن طريق الكيانات البشرية فقط، ولكن من خلال الحيوانات المحيطة بهم، وهذا هو الأمر الذى يجنبهم الجهل ويجعلهم على دراية ومعرفة كاملة بالأمور الجنسية من خلال رؤية الحياة الواقعية فى الريف. وعلى النقيض من ذلك نجد

(1) برتراند رسل: نحو عالمٍ أفضل، مصدر سابق، ص134..

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.70.

أن أطفال الأثرياء أو الطبقة المتحضرة على جهل كبير بهذه المعرفة العلمية المتعلقة بالجنس، حتى عند هؤلاء الأباء الأكثر تحضرًا فى نقل المعلومات لأطفالهم من خلال قراءاتهم المتنوعة فى الكتب[1]. أضف إلى ذلك أن الرجل والمرأة الذين تلقوا تعاليم المسيحية يقبلون على الزواج دون خبرة جنسية كافية، مما يؤدى ذلك إلى نتائج غير مرضية[2].

وعندما كان السلوك الجنسى ليس غريزيًا فإن الشباب يعانون من نقص فى الخبرة الجنسية، كما تكون الفتاة فاقدة للخبرة الجنسية تمامًا، وربما يكتسب بعض الشباب خبرة جنسية من البغاء، ولكن مثل هذه الخبرة تجعله لا يقدر قيمة المغازلة التى تعد ضرورية لنجاح الزواج. كذلك من الملاحظ أن نساء الطبقة الراقية يعتبرون البرود الجنسى من الفضائل، الأمر الذى يؤدى إلى استحالة استمرار الزواج، والحقيقة أن الفشل فى الحصول على الاستمتاع الجنسى، يؤدى إلى نوع من عدم الإشباع النفسى والفسيولوجى، يشبه عدم الاستمتاع من تناول الطعام، وليس له علاقة بالفضيلة أو بالرذيلة[3].

إن ما سبق عرضه يعد من وجهة نظر الفيلسوف محل الدراسة عبارة عن معوقات فى سبيل الوصول إلى السعادة فى الزواج، حيث يرى أن الكنيسة تؤدى دورًا مهمًا فى جلب التعاسة للزوجين، وذلك بسبب القيود والقوانين التى تفرضها السلطة الكنسية ومنع الطلاق ومنع الاختلاط، وكذلك كانت التربية الجنسية الخاطئة كما يراها رسل أحد أسباب التعاسة أيضًا، فرسل هنا يدعو إلى الحرية فى العلاقات الجنسية وفى تعلم الجنس، فهو يرى أن التعاسة تأتى من عدم الخبرة فى معرفة الجنس، فعلى حد تعبير «آلان وود»(*) يرى أن رسل ينادى بتحبيذ التجارب الجنسية قبل الزواج، حيث كتب فيلسوفنا يقول: «ليس من المرغوب فيه أن يقدم

(1) Ibid, p.71.

(2) Ibid, p.71.

(3) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص 255.

(*) آلان وود: أسترالى المولد، تخرج من جامعة سيدنى، حيث كان والده استاذًا للتاريخ فيها، وبعدها واصل «وود» دراسته فى اكسفورد حيث اهتم بدراسة الفلسفة وكان أول أسترالى يصبح رئيسًا لإتحادها، وبعد فترة من الزمن عاد إلى أكسفورد حيث اهتم بدراسة فلسفة برتراند رسل، إلى جانب علاقته الوثيقة برسل، مما أثمر عن ذلك كتابه «برتراند رسل - سيرة حياة»

انظر - رمسيس عوض: تقديمه للترجمة العربية لكتاب ألان وود: برتراند رسل - سيرة حياة، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 64، 1998م، ص9.

الرجل أو المرأة على عملية الزواج الجادة التى يقصد بها أن تؤدى إلى إنجاب الأطفال بدون أن يكون لهما تجارب جنسية سابقة»[1].

ومن أسباب تعاسة الزواج أيضًا الإحساس بعدم الرضا، ويمكن تفسيره على النحو التالى: أنه عندما تكون هناك مناسبةٌ اجتماعيةٌ، ويتقابل فيها الرجال بالنساء المحترمات من الناحية الأخلاقية، فى هذه الحالة يكون الرجال غير قادرين على إقامة علاقات جنسية مع غير زوجاتهم، وبالتالى يحاولون أن يكونوا فى أفضل الحالات فى هذه اللحظة حتى ينالوا إعجاب النساء، ونفس الشىء أيضًا ينطبق على الزوجات[2].

ومن أسباب فشل الزواج وتعاسته عدم شعور الإنسان بقيمة الحب، فالحبُّ ينمو ويستمر إذا كان متمتعًا بالحرية والتلقائية spontaneous، ويموت الحب إذا اعتبر واجبًا من الواجبات الملزم بها الإنسان، فإذا قيل لك أنه من الواجب أن تحب شخصًا ما، فإن ذلك يؤدى بالضرورة إلى كراهية الشخص الذى طلب منك بأن تحبه، فالزواج هنا عبارة عن رابطة من الحب من خلال الارتباطات الشرعية[3].

مما سبق يتضح أن رسل يدعو إلى فلسفة للزواج مغايرة تمامًا لما قامت عليه الأديان، والأعراف والتقاليد الأخلاقية المتبعة فى ترشيد السلوك الأخلاقى، بل نجد رسل هنا يدعو إلى عملية الإباحية الجنسية من خلال دعوته إلى حرية الجنس ومعرفته، وبالتالى فإن الحرية التى ينادى بها رسل هنا يمكن القول عنها بأنها حريةٌ مزعومةٌ أى أنها حرية لا أخلاقية فى فلسفة الأخلاق، أو أنها فلسفة لا دينية بالمرة، وإن كان من الواجب على الشاب أن يتعرف ويدرك مدى العلاقات الجنسية، ولكن لا يجب أن تتعدى المعرفة فى هذه الحالة إلى التطبيق، كما يجب حجب كل ما يتعلق من باب الفلسفة الأخلاقية عن طبيعة الجنس عن الصبية والأطفال مهما كانت حياتهم ريفية أم متحضرة، وبالتالى كانت هذه الرؤية المقدمة من فيلسوفنا مسار نقد ومناقشة لكل من الكتاب أمثال «آلان وود».

---

(1) آلان وود: برتراند رسل بين الشك والعاطفة، ترجمة / رمسيس عوض، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1984م، ص174.

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, pp.70,71.

(3) Ibid: pp.72,73.